

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المثني

كلية الآداب

قسم الآثار

المرحلة الرابعة

تاريخ الشرق الأدنى القديم
(بلاد الشام)

مدرس المادة

م.م. هيثم عقيل عويز

تاريخ شمال بلاد الشام القديم

(تاريخ سوريا ولبنان القديم)

البيئة الجغرافية :

كانت سوريا تشمل ضمن حدودها القديمة لبنان وفلسطين^(١) أيضا . ولكننا سنفصل هنا بين سوريا (سوريا ولبنان معا) وفلسطين وإن كانت سوريا صغيرة جدا في حجمها الجغرافي لكنها كانت كبيرة وعالمية في تأثيرها الحضاري^(٢) .
إن الصفة البارزة لجغرافية سوريا هي تناوب الأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضا وتتجه من الشمال إلى الجنوب ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق .

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول (ترجمة : د. جورج حداد وعبد الكريم رافق ، ص ٣ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ . وعن جغرافية لبنان ومناخها ونباتاتها وحيواناتها ومواردها الطبيعية : راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ، ص ١٣ - ٥٠ .

(٢) قديما أشار هيرودوت إلى أهمية البلدان الصغيرة بقوله : " أننى سأهتم بالبلدان الصغيرة اهتمامى بالكبيرة منها ذلك لأن أكثر الأمم التى كانت فى سالف الزمان عظيمة أصبحت صغيرة ، والأمم العظيمة فى يومنا هذا كانت فى سالف الزمان صغيرة ، ولأننى موقف بأن أقدار البشر عرضة للتغير الدائم فلن أفرق فى دراستى هذه بين أمة كبيرة وأمة صغيرة " راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٢ حاشية (١) .

السهل الساحلي :

وأول هذه المناطق من جهة الغرب هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر الشرقي من شبه جزيرة سيناء إلى خليج الإسكندرونة (إسوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فينتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . ويرجع أصل معظم السهل الساحلي إلى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالزمن الثالث . وقد ترسب فوق الطبقة الطباشيرية في بعض الأماكن طمي أتت بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته . والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها أمواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل .

ويشمل السهل الساحلي في الجنوب تلك السهول المشهورة في الأزمنة القديمة وهي سهل صارونة وسهل فلسطينيا (من الفلسطينيين ومنها جاء اسم فلسطين) كما يشمل ساحل النصيرية في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان (١).

السلسلة الغربية :

تشرف على الساحل السوري سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ بالأمانوس في الشمال وتمتد حتى جبل سيناء المرتفع في الجنوب وأهم أجزائها لبنان الغربي وهو لبنان الحقيقي . والأمانوس هو التواء فرعي يمتد من جبال طوروس (التي تفصل سوريا عن آسيا الصغرى) باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية ويحيط أمانوس بخليج الإسكندرونة فيشكل حاجزا بين سوريا وكيليكيا ويرتفع إلى نحو ٥٠٠٠ قدما عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي (الأورنتس) طريقه إلى البحر في الطرف الجنوبي من أمانوس . وتستمر السلسلة الغربية جنوب مصب العاصي في جبل الأكرع (وهو جبل كاشيوس في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع إلى ٤٥٠٠ قدما ومن هناك تمتد إلى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية ثم

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٣١ - ٣٢ .

تتابع سيرها إلى نهر الكبير الجنوبي وسلسلة النصيرية تتألف من صخور كلسية جوارسية مع مواد بازلتية (١).

وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعا شبيها بالارتفاعات الألبية في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ ميلا . ويأتي اسم لبنان من الأصل " لابن " بمعنى التبياض (٢) وقد سميت الجبال كذلك بسبب الثلوج التي تغطي قممها نحو ستة شهور في السنة ، ويبقى الجليد في الفجوات الكائنة في قمم الجبال على مدار السنة . وترتفع أعلى قمة في لبنان وهي القرنة السوداء إلى ١١,٠٢٤ قدما عن سطح البحر .

وقبل العصور الجليدية بعصور طويلة كانت مياه البحر المتوسط تغطي أراضي سوريا بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي الهند وكان ذلك في العصر الجوارسية والكريتاسية البعيدة . وخلال هذه الأحقاب الطويلة تراكمت الرسوبيات الأتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تيثس Tethys) لكي تشكل الصخور الكلسية التي يتألف منها معظم السلسلة الغربية في سوريا (٣).

وتضم صخور لبنان سلسلتين عليا وسفلى من الصخور الكلسية بينهما طبقة متوسطة من الصخور الرملية .

إن التشكيلات الكلسية الواسعة التي تتجه في لبنان نحو البحر في شكل رؤوس وتحفر فيها الأمواج بعض التعرجات يمثلها لنا جبل الكرمل الذي يرتفع ١٧٤٢ قدما عن سطح البحر . وقد وجدت في كهوفه هياكل أقدم العظام البشرية في

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ، ص ١٤ - ١٦ .

(٣) المرجع السابق ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٣٥ .

الشرق الأدنى القديم (١) . واستخدمت بعض الكهوف كمساكن أو كملاجئ أو كمكمان للدفن .

ويتراوح عرض البقاع وهو الجزء الكائن بين ملسلتى لبنان بين مئة وعشرة أميال ويرتفع في جوار بعلبك إلى ٣٧٧٠ قدما عن سطح البحر . وبالقرب من هذه المنطقة تقع نقطة توزيع المياه حيث يتجه العاصى ببطء نحو الشمال بينما يتجه الليطاني نحو الجنوب ، والعاصى هو أطول أنهار سوريا ، والعاصى والليطاني هما النهران الكبيران الوحيدان في سوريا .

السلسلة الشرقية :

وتشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة فى تضاريس سوريا . وتبدأ السلسلة فى نقطة جنوبى حمص وتقابل لبنان الغربى بلبنان الشرقى على طول واحد وارتفاع واحد تقريبا ثم تتحدر من حرمون بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التى تجاورها فى الغرب وهى الجولان ومن هناك تستمر فى شرقى الأردن فى تلال جلعاد وهضبة نواب المرتفعة وتنتهى فى جبل سعيد جنوبى البحر الميت .

حوران :

يمتاز سطح هضبة حوران بأنه بركانى فى قسمه الأعظم وفيه صخور بازلتية وتربة غنية . وتبدأ الأراضى البركانية فى التلال جنوبى دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلا بما يعادلها عرضا وهى أكبر مساحة من هذا النوع فى سوريا . ويحد هذه الأراضى فى الشمال الشرقى منطقة اللجأ ذات الحجارة السوداء وهى ملجأ أو مأوى للإنسان . وترتفع هذه الكتلة الجبلية فى شرقى حوران إلى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدما وتقوم بين حوران والبادية . وتمتد المنطقة البركانية غربا حتى تشمل الجولان وتتألف التربة من مواد بركانية سوداء ضحلة ومن غرين

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

أحمر^(١) . وهى غنية بالمواد المغذية للنبات وتحفظ بالرطوبة وتغطى الصخور الكلسية التى تتشكل الصخور المسطحية فى سائر الأماكن . وتمتد أراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقى فى صحراء الحماة إلى تلك الحقول الحجرية فى الحجاز المعروفة باسم ' حرات ' .^(٢)

ومن أهم أشجار لبنان شجر الأرز وكان يصدر إلى مصر وبلاد النهرين واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانبا من مجد لبنان كما كان فى الماضى . ولا يزال يوجد الأرز فى مجموعات صغيرة توجد فى منطقة بشرى حيث تقوم أكثر من أربعمئة شجرة يبلغ عمر بعضها ألف سنة .^(٣) ويبلغ ارتفاع أعلاها نحو ثمانين قدما . وهناك غابة أرز اصغر وأحدث وموقعها فى الجنوب وتسمى ' أبهل ' .^(٤) أما عن الحيوانات فقد أدخل الهكسوس الحصان إلى سوريا ومنها إلى مصر قبل عام ١٨٠٠ ق.م . ومن سوريا انتقل قبل القرن الأول إلى بلاد العرب حيث حافظ فيها الحصان العربى على نقاوة دمه أكثر من أى مكان آخر . وقد استورده الكاسيون فى بلاد النهرين على نطاق واسع قبل الميلاد بنحو ألفى سنة . وقد أعطاه الحيثيون إلى الليديين ومنهم انتقل إلى اليونان .^(٥)

وأقدم رسوم معروفة للجمل ترجع إلى العصور الحجرية . وقد اكتشفت حديثا فى كلوة فى شرقى الأردن حيث ظهر فى رسامين من العصر الحجرى الوسيط . كما اكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه فى تل حلف ويرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ أو ٢٩٠٠ ق.م . ووجود الراكب لا يترك شكاً فى أن الحيوان كان مدجنا .

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) عن الأرز سيد الغابات فى لبنان ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم

العصور التاريخية ، ص ٤٢ - ٤٦ .

(٤) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٥٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

وفي جبيل عثر على تمثال صغير يمثل جملا باركا يعود إلى النصف الأول من الألف الثانية ق. م .

وأول إشارة معروفة للجمل في الأدب نجدها في سفر القضاة ٦ : ٥ حيث يوجد وصف لغزو المدينيين (عناصر من مدين) لفلسطين في القرن الحادي عشر ق. م . (١)

وقد تعرضت سوريا قديما لحوادث زلازل ، فتعرضت إنطاكية وكذلك بعلبك وأريحا في القرون الستة الأولى الميلادية لهزات كثيرة . (٢)

مور سوريا في التاريخ القديم :

تقع سوريا في قلب الشرق الأدنى ، الذي يقع هو أيضا في وسط العالم القديم ، ولهذا فقد أصبحت منذ عصر بعيد جدا ناقلة للمظاهر الحضارية في العصور القديمة . فهي ذات موقع استراتيجي بين القارات القديمة الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا . وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية أيضا . وهذا الدور الذي لعبته تقسره لنا أعمال الفينيقيين الذي كانوا أول التجار الدوليين . وليس هناك من اختراع يعادل في أهميته اختراع الأبجدية التي اخترعها الفينيقيون القدماء ونشروها . فاليونان في الغرب نقلوا حروفهم الأبجدية عن الفينيقيين ، ثم أعطوها إلى الرومان وبالتالي إلى شعوب أوروبا الحديثة . كما أن الأراميين الذين استقروا في وسط شمالي سوريا نهاية القرن الثالث عشر ق. م . استعاروا حروفهم من المصدر نفسه أي الأبجدية الفينيقية ونقلوها إلى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا . ولو أن هؤلاء السوريين لم يعمروا للعالم أي خدمة أخرى لكان ذلك كافيا بأن يتميزوا كأعظم مؤسسين للحركة الثقافية في العالم القديم .

(١) د. فليب حتى : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٢٧ .

غير أن فضل السوريين لم يقف عند هذا العامل فقط . فقد تفاعلت على أراضيهم الضيقة أحداث تاريخية وثقافية تتصف بفاعليتها أكثر مما جرى على أى أرض أخرى بنفس المساحة ، ففي العصر اليونانى الرومانى ظهر فى هذا البلد مجموعة من المفكرين ، فكان بعض مؤسسى الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة من السوريين ، وازدهرت فى بيروت مدرسة من أعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض علمائها فى مجموعة قوانين يوستينيان التى اعتبرت بحق أعظم ما قدمته العبقريّة الرومانية للأجيال .^(١)

اسم سوريا قديما :

ظهر اسم سوريا فى مصادر أوجاريت من أوائل القرن الرابع عشوق . م . تحت مسمى ' شرين - Shryn ' . وكانت إحدى مناطق شمالى الفرات معروفة عند البابليين باسم سورى Su-ri . وفى العبرية أطلق اسم سيريون Siryon على المنطقة شرقى لبنان ، واستخدم هذا الاسم فيما بعد ليشمل البلاد كلها .

ونكر اسم سوريا لأول مرة عند هيرودوت . وظل مستخدما فى العصور اليونانية وما بعدها وتوسع فى استعماله وأطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد شمل عموما المساحة الواقعة بين جبال طوروس وسيناء وبين البحر المتوسط والبادية . وكانت فلسطين بالنسبة لـ هيرودوت جزءا من سوريا وكذلك بالنسبة للكثير . واعتبر ولیم الصورى وغيره من مؤرخى الحروب الصليبية فلسطين جزءا من سوريا أيضا .

وكان اسم سيروس (سورى) بالنسبة للرومان يعنى كل شخص يتكلم اللغة السريانية ، غير أن ولاية سوريا الرومانية كانت تمتد من الفرات إلى مصر وكانت هذه هى حدود سوريا كما وصفها الجغرافيون العرب .^(٢)

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣ - ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص